غربٌ حاكم وشرق محكوم

لميخائيل نعيمة

من الأوهام المسيطرة على عقول الناس — وما أكثرها ! — وهمهم أن في مستطاع انسان أن يحكم انساناً من غير أن يكون محكوماً منهُ . والواقع انهُ ما قامت علاقة بين مخلوق ومخلوق إلاّ كان فيها شركة للاثنين ، وكانت حصة الواحد معادلة لحصة الآخر

فأنتم ما أغتذيتم بلحم الأرض ودمها إلاّ غذيتموها بلحومكم ودمائكم . ولا استخدمتم بهيمة إلاّ كنتم خدّامها . ولا ملكتم شيئاً إلاّ ملككم . ولا حكمتم انساناً إلاّ حكمكم

هل عرفتم ربّ عائلة ما تحكّم فيهِ كل فردٍ من أفراد عائلته ، حتى الذي ما برح مقمّطاً في المهد ؟ أو هل سمعتم بقائد قاد جيشاً وما قاده جيشه ؟ أو هل قرأتم من كتاب إلاّ على قدر ما قرأ ذلك الكتاب منكم ؟

لا يستطيع حاكم أكثر مما في استطاعة محكومهِ . فقدرة المحكوم هي قدرة الحاكم . واذ ذاك فما معنى هذه الهالة من الجلال والعظمة والتؤدد والرفعة والسعادة تنسجها أوهام الناس حول هامات حكامهم ، ولا تجد غير الذل والحقارة والصغارة والطاعة العمياء وتكران الكرامة تنسج منها أقنعة لابصار محكوميهم ؟

ان يكن في الحكم جلال فهو جلال المحكوم قبل أن يكون جلال الحاكم . أو تكن فيه صغارة فهي صغارة الحاكم والمحكوم بالسواء

وما علاقة الحاكم بالمحكوم سوى علاقة طارئة تفرضها احوالٌ طارئة من عالم خفيّ ما توصّل الانسان بعد الى الوقوف على أسراره والسيطرة على منابعها ومجاريها . فحاكم

الأمس يصبح محكوم اليوم . ومحكوم اليوم يغدو حاكم الغد ، لا كسباً لشرف أو امتهاناً لكرامة ، بل امتثالاً لمشيئة البشرية الخفية في سيرها نحو المثل الأعلى ، وتحقيقاً لرغبات في نفسها لا تزال أبعد من متناول مداركها وأعمق من نفوذ وعيها

***

والسرّ في عدم ثبات الحكم البشري وسرعة تنقله من يد الى يد ، ومن فئة الى فئة ومن شعب الى شعب ، انما هو في النفس البشرية وما في زواياها الغريبة من خبايا عجيبة

انهُ لمن الصعب أن تسوق قطيعاً من الغنم بعصاً واحدة . فلا بدَّ ولو من كبش واحد يتمرَّد على عصا الراعي وصوته . فكيف بقطيع من البشر تسوقه بعصاً واحدة ، والى الأبد ؟

أما كان فرعون سيّد مصر اللطق يوم جاءته ابنته بلقيط حظيت به على ضفّة النيل فربّاه في قصره ؟ وذلك اللقيط جرّ فرعون وركباته فيما بعد الى مدفن من الأوحال في قعر البحر الاحمر . فأيّ الاثنين كان حاكم الآخر ؟ أفرعون كان حاكم موسى ، أم موسى كان حاكم فرعون ؟ ومن أين كان لفرعون أن يعرف القوى المدفونة في نفس موسى والغاية التي ندبتهُ لها المشيئة الكليّة ؟

أما كانت رومة الحاكمة المطلقة في الجليل واليهودية يوم وُلد ابن مريم ويوم راح يبشر بملكوت الله ! وها هي ذي بشارة ابن مريم لا تزال ماشية من فم الى فم ومن قلب الى قلب ، فأين رومة وجحافل رومة ؟ أكانت رومة حاكمة الجليل أم كان الجليل حاكم رومة ؟ ومن أين كان لرومة أن تتكهّن بما ستنفتح عنهُ شفتا الطفل المولود في مذود للبهائم في بيت لحم ؟

أما كانت قريش سيدةً لا يناهضها مناهض في مكة يوم قام يقيم لا سلطان في يده يدعو الناس الى الاله الأوحد ؟ وأين اليوم سلطان الذين اضطهدوه وقاتلوه من سلطانه ؟ أكانوا هم حكامه ام كان هو حاكمهم ؟ ولو درت قريش يومذاك بما انطوى عليهِ قلب ذلك اليتيم من قوى واسرار لطرّت امامه صاغرة بدلاً من ان تتصدى له بسوء

والآن ماذا عساكم تقولون فيمن يقول لكم ان مشكلة الحكم ما بين الشرق والغرب ليست بالمشكلة التي تتوهمون . فالغرب لا يحكم اليوم الشرق اكثر مما يحكم الشرق الغرب . لكنما المؤسف والموجع في هذا الحكم ألاّ يكون فيه ما يشرّف او يمجّد الاثنين . فهو لا يقوم على مودة واخوة ومحبة حرية بان تربط التوأمين ، بل على منافع موهومة تذروها الايام والليالي فاذا بها حسك ولا حَبَّ ، واذا بها ألعوبة الرياح

***

ومن ثمّ فأيّ حكم دام وأي حاكم تمكّن يوماً من سبر اعماق محكومه والوصول الى كل ما في اغوارها من قوى هاجعة تتململ للوثوب ؟ وان هو لم يتمكن من ذلك فبماذا وكيف يكون حكمه ؟ ومَن يدري بماذا حبل هذا الشرق في غضون هجعته الطويلة وبماذا يتمخض اليوم ؟

انهُ لا شك يتمخض بأمور أعجب وأعظم بكثير من التي يحلم بها أبناؤه ويحسبونها من خطر الشأن في أعلى مكان . فهم يحلمون — في جملة ما يحلمون — بعنقاء يدعونها الاستقلال . ويتوهمون انهم اذا ما ظفروا بها يوماً ظفروا بالغبطة التي ما بعدها غبطة

ألاَ ليت الاستقلال كان ما يتوهمون . ألا ليتهُ ما كان اكثر من استبدال حكم بحكم ، ووجه بوجه ، ولسان بلسان

ألا ليتهُ كان ينال — كما يزعمون — ببذل الفلس والدم . اذن لما كان اغلاه نعمةً يبتاعها الناس بمثل ذاك الثمن الزهيد

لكن الاستقلال غير ما يزعمون . فما استقلّ انسان في قلبه من الضغائن بثور ودمامل ، وفي فكره من المخاوف ديجور فوق ديجور . ولا استقل من كان الفلس في جيبه سيده واميره . ولا من كان مقوده في يد غير يده

وأيّ أبناء هذا الزمان ، أيّ شعوبه ، أي أمصاره يستطيع القول بأن مقوده في يده ؟ ألعلّ لا حاكم الانسان الاّ الانسان ؟ اذن أين أنتم من الموت ؟ ومن الطبيعة التي اذا ما فتحت كفها فوق حاجاتكم أغرقتكم ، او أمسكتها دون حاجاتكم خنقتكم ؟ بل أين أنتم

من الغباوة والبعوضة والجراثيم التي لا تبصرونها تقضّ عليكم مضاجعكم وتعثّم حتى النور في أبصاركم ؟

ان تكن تلك حالكم مع أنفسكم ومع غير الناس فكيف بحالكم مع الناس ؟ من منكم ليس محكوماً من نسيب او حبيب ، او صديق او عدوّ ، قبل ان يكون محكوماً من رئيس دولة وقاضٍ وشرطيّ ؟

***

ما من مناص للانسان من الانسان وحكم الانسان . وكذلك الشعوب — ما تجانس منها وما تخالف ، وما تصادق منها وما تعادى — لا مناص لأيّ منها من ان يكون حاكماً ومحكوماً في آن واحد . ومن خيّل اليه العكس — من توهم ان في مستطاع قبيلة ان تسود الى الابد من غير ان تكون مسودة — كان في حاجة لا الى الاستقلال ، بل الى طبيب عقول وطبيب ابصار . لانهُ ما فقه من عبر التاريخ أبسطها وأقربها الى العقل والبصر . وهي ان دولاب الزمان ما ينفك يدور . وان البشرية العالقة به لا بدّ من ان يعلو بعضها هنا وينخفض هناك . ثم لا يلبث المنخفض ان يعلو والعالي ان ينخفض . فصيتكم الدولاب بالدم البشري لن يسرع في دورانه لحظة ولن يبطىء لحظة

وبعد ذلك فالدم البشري دم ذكيّ طاهر فهو الاناء الحامل جرثومة الحياة المباركة والفهم المقدس ومن الحرام ان يُهراق الاّ في سبيل الحياة والفهم ، بل من الاثم ان يهدر بغير حساب على حدّ ما يهدر اليوم ترضية لأهواء يثيرها الجهل ويسوقها الموت . ولا بد لهذه الانسانية المقصودة بمحاصد البغض والجشع من صوت يهيب بها الى حقن دمائها الزكية والاحتفاظ بما تبقى منها لغايات أنبل وأسمى من استبدال حكام بحكام ، وتخوم بتخوم ، وأوبئة بأوبئة

ان هذا الصوت سيخرج من الشرق — من هذا الشرق الذاهل اليوم عن نفسه وما في أعاليها من قمم باسقة وفي أعماقها من أبعاد . ومن رسالته العلوية وما في رسالته من بلسم لجراح الانسانية الدامية ومن نور لأبصارها القرحة وبصيرتها الكفيفة

بي ، ثم إي . من هذا الشرق ستندفع أمواج ذلك الصوت الى ان تعمر الارض . من هذا الشرق المنكوب بأبنائه أشد من نكبته بغير أبنائه . فهم يتطلبون له أمجاداً غير مجده والامجاد التي يتطلبونها هي التي جعلت من الأرض مسلخاً ، ومن الانسان قصاباً لاخيه الانسان ، ومن حياة الناس مجزرة هائلة ومقبرة شاسعة . هي دفعات من السموم التي أفسدت على الناس دماءهم ولحومهم ، ونخرت عظامهم ، فصرفتهم عن نفوسهم وعن ربهم

أما مجد الشرق الحقيقي فسيكون في انهُ لن يطلب مجداً على الاطلاق ، بل يقول مع الناصري : « من أراد منكم أن يكون سيداً فليكن للكل خادماً » . أجل . سيكون الشرق خادم العالم . وسيخدم الانسان أينما كان لا بتحريره من حكم جاره . بل بتحريره من حكم نفسه . فما ساد من كان عبداً لنفسه وان حكم الشرق والغرب . ولا ذلَّ من ساد نفسه ولن كان محكوماً من الناس أجمعين

***

لو قال لي قائل ان الشرق سيفعل غير ذلك او أقل من ذلك ، وانهُ لن يتمخض من بعد هجعته الطويلة بأكثر من حكومات جديدة ونظم جديدة لانكرت هذا الشرق ولصرخت من أعماق قلبي : « ألا ليته ما حَبِل ولا تمخض »

غير اني واثق بأن المولود العتيد ان يأتي به الشرق ، سيكون أعظم من كل ذلك بما لا يقاس . فالشرق أخصب فكراً ، وأسمى خيالاً ، وأسمح قلباً من أخلص المخلصين من زعمائهِ . فكيف بغير المخلصين ؟ والشرق أصلب عوداً ، وأبعد جذوراً في تربة الوجود من ان تلويهُ سياسة او يقتلعهُ اعصار .

وان تسألوني عن ثقتي بهذا الشرق من أين منبعها أجيبكم : من الحكمة التي فاضت على لسانهِ من زمان ، والتي يبلى الزمان وجدَّتها لا تبلى ، وتبور كل سلطة وسلطتها لا تبور . وهذه الحكمة لن يجلوها من جديد الاَّ الشرق ولن يحسن الحكم بها الاَّ الذي خلقها من نفسهِ ثم حكَّمها في نفسهِ . فلها ستكون السيادة في العالم المزمع ان يولد ، وعلى حدّوها ستمشي قوافلهُ جيلاً بعد جيل